تحديات في وجه اللغة العربية

التبشير واللغة العربية

الأستاذ أنور الجندي

(القاهرة)

واجهت اللغة العربية منذ اوائل العصر الحديث تحديات خطيرة جائرة من خلال النفوذ الاستعماري الذى سيطر على العالم العربي ، ورأى فى اللغة العربية عاملا من العوامل الخطيرة التى تعارض تثبيت قواعده . ومن هنا فقد عمد النفوذ الاستعماري الى عملين خطيرين :

اولهما : تجميد اللغة العربية عن التوسع فى العالم الاسلامي

ثانيهما : توسيع نطاق اللغات الاجنبية وتشجيع اللهجات المحلية

وقد كان لمخطط التبشير الذى نفذه الاستعمار فى العالم العربي اثره الواضح فى هذا المجال

فقد وجه التبشير الى اللغة العربية حملة ضخمة قوامها حقيقة اساسية هي ان القضاء على القرآن مصدر الاسلام وقانونه الاسلامي يتطلب القضاء على اللغة العربية الفصحى ولما كان التبشير والنفوذ الاستعماري لا يستطيع ان يكشف هذه الحقيقة صراحة فانه اخفاها وراء كل خطوة اتخذها بشأن الدعوة الى العامية او مهاجمة اللغة العربية وانتقاصها او الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية .

وتكشف جميع النصوص التى بين ايدينا على ان هذا الغرض الدفين واضح فى عقل كل من يتصدى لهذا الغرض ، ويبدو خطر الدعوة الى تحطيم اللغة العربية واضحا حينما نرى ان عددا كبيرا من المبشرين والمستشرقين قد تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع واقاموا من انفسهم خداما لهذه الغاية لا يرون باسا فى التخفي وتغيير شخصياتهم فى سبيل تحقيق ما يريدون ، حتى ان « ولهم سبتيا » اول الدعاة الى العامية ومدير دار الكتب بالقاهرة يختار ان يعيش فى حي وطني « لكي يستقي العامية من منابعها الاصلية ولا يدون الا ما يسمعه ، ثم يدون ما يسمعه باذنه على كم قميصه خوفا من ان يلاحظه احد المتكلمين فيفقد طبيعته وحريته فى الكلام »

وقد شغل عدد من هؤلاء الاجانب بامر «العامية» المصرية واهتموا بها والفوا عنها وفى مقدمتهم ولهم سبتيا ، وكارل فولرس ، وسلدن ولمور ، ووليم ويلكوكس . وقد بدأ ذلك منذ 1880 واستمر حتى عام 1926 تقريبا .

وفى خلال ذلك كان لطفي السيد وقاسم امين وسلامة موسى قد حملوا لواء هذه الدعوة ثم اتصل ذلك بالدعوة التى دعاها عبد العزيز فهمي عام 1941 عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية هذا فى مصر وفى المغرب تولى كولان ومن بعده ماسينون لواء هذه الدعوة وفي لبنان ظهر كثير من الدعاة الى الحروف

اللاتينية والعامية اللبنانية ، وقد كان هدف هذه الدعوة التى حمل لواءها التبشير اساسا لخدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثقافية انما يرمي الى تمزيق اللسان العربي فى العالم الاسلامي كله وليس العربي وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية باحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى فى كل قطر وبذلك ينفرط عقد الوحدة الجامعة التى كان قوامها هذا الكتاب المنزل والذى حفظ وحدة اللغة العربية طوال اربعة عشر قرنا .

ويؤكد الباحثون ان اهتمام الاجانب بالعامية « لم يكن من اجل البحث العلمي ـ ولا من اجل حاجتهم الى معرفة لهجات البلاد العربية التى تقتضي معاملهم ان يعيشوا فيها ـ وتعاملوا مع اهلها وانما من اجل القضاء على العربية الفصحى واحلال العامية محلها (1) »

ومن الواضح ان هؤلاء الاجانب من المبشرين هم الذين وضعوا فى مؤلفاتهم هذه الخطة الكاملة التى ما يزال يستقي منها كل دعاة الشعوبية والتغريب واتباع المستشرقين والمبشرين من ادعاءات حول ما يصفونه بصعوبة اللغة العربية ، وصعوبة الحروف العربية ، واتهام اللغة العربية بانها لا تستطيع مجاراة العلوم الحديثة والفوارق الواضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة .

ولقد يدهش بعض البسطاء لاهتمام الاستعمار والنفوذ الاجنبي باللغة العربية بغية القضاء عليها ، ولو علموا مكان اللغة العربية من الاسلام والثقافة وكيان الامم لما دهشوا ، فاللغة هي روح الامة ومزاجها ، وهي ينبوع ما عند الامة من المزاج الخلقي والشعور النفسي .

فلا تفكر الامة الا بلغتها ، والفرق بين الفكر وبين اللغة دقيق وخطير ، ولذلك فان القضاء على اللغة انما يراد به القضاء على روح الامة وافساده .

وفى هذا يقول المازني :

« ان الانسان لا يستطيع ان يفكر الا بالالفاظ فهي وحدها اداة التفكير فلا سبيل اليه بدونها ومن المستحيل ان تمثل معنى مجردا عن الفاظ معينة ، ولكل لغة اساليبها وطرائقها فاساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للاساليب التى يتالف على مقتضاها الكلام فى اللغات المختلفة ومن هنا يتفق ويتشابه ابناء كل لغة ويختلفون عن ابناء كل لغة اخرى ، وهذا هو الفرق بين الانجليزي والفرنسي ، وما بين الانجليزي والهندي . »

وتمتاز اللغة العربية فى هذا المجال عن اللغات الاخرى بان لها « كتابا » هو رسالة السماء الى المسلمين ، ومن هنا فهي ترتابط بعد الجماعة العربية التى تتكلمها بجماعة اخرى تزيد خمسة اضعاف من المسلمين الذين يجدون فى هذا الكتاب لغة دينهم ولغة ثقافتهم ، ومن هنا فقد اصبح للغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستعمار ان يواجهه بحزم فحيث يذهب الاسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد عمد الاستعمار الى تجميد اللغة العربية فى مختلف بلاد العالم الاسلامي التى سيطر عليها واعان لغته الاجنبية على السيطرة ، كما خلق من اللغات المحلية قوى يركز عليها لمحاربة اللغة العربية .

ومن هنا وفى سبيل اقصاء القرءان عن ثقافة الامم المسلمة سيطر النفوذ الاجنبي على وسائل التعليم وادارها بلغته التى اصبحت هي اللغة الاولى فى كل قطر محتل ، واجرى تجميد المعاهد الاسلامية الخالصة كالازهر والقرويين وقد اشار المبشر الاكبر «زويمر» الى خطورة اللغة العربية حين قال :

« ان اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذى يجمع ملايين المسلمين على اختلاف اجناسهم ولغاتهم» وكان هذا اشارة الى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التى هي لغة القرءان .

وهذا هو المعنى الذى تلفت اليه المرحوم مصطفى صادق الرافعي فى حملته على لطفي السيد ودعاة التسوية بين العامية والفصحى ، فقد كان الرافعي يعرف ان الهدف من ذلك هو احلال « لغة وسطى » قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك يبتعد المسلمون عن لغة القرءان البليغة وبذلك يصبحون عاجزين عن فهم القرءان او التعامل معه وهذا ما يهدف اليه الاستعمار .

(1) كتاب تاريخ الدعوة الى العامية

ومن اخطر دعوات التبشير والتغريب تلك الدعوى التى تتحدث كثيرا عن الادب الشعبي والفلكلور ولا يفهم الالحاح فى هذه الدعوة الاجنبية الا حين نرى جيرة سبتيا وفولرس وولور وويلكوكس فى البحث عن ثقافة شعبية يريدون اسنادها الى اللهجات العامية وبذلك يستطيعون ان يقولوا انها « لغة » وشرط اللغة ان تكون لها ثقافة ومن هنا عمدوا جميعا الى جمع المواويل والازجال والحكم العامية .

وقد جرت هذه الدعوة فى الوقت الذى كان « دنلوب » يستولي فيه على مقاليد التعليم فى مصر ويضع النظام الذى يريد به تغليب العامية والانجليزية واختصر دراسة العربية وكل ما يتصل بها بعد الاحتلال .

ثم جاء « سلدن ولمور » بعد الاحتلال فاضاف الى دعوة من سبقوه الى العامية ـ العمل على كتابة العامية بالحروف اللاتينية.

وآزرت مجلة المقتطف وبعض الكتاب من خريجي الارساليات والمعاهد الاجنبية هذه الدعوة ورددوا آراء هؤلاء التى تتلخص فى اثارة الشبهات عن الخلاف بين لغة الكلام ولغة الكتابة وضرورة احلال اللغة الاجنبية فى التعليم نتيجة الارتباط بالدول الاوربية .

وكان سعد زغلول « اول ناظر للمعارف العمومية هو اكبر دعاة بقاء اللغة الانجليزية لغة عامية للتعليم ، وقد استطاع الاستعمار والنفوذ الاجنبي به ان ينقل السهام الموجهة الى كرومر ودنلوب الى قلب وزير عربي هو الذي تصدى ليحمل لواء الدفاع عن بقاء اللغة الانجليزية كاساس للتعليم وتجميد اللغة العربية .

وعارض هذا الاساس كبار قادة الصحافة والسياسة فى هذه الفترة وفى مقدمتهم : مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف واشاروا الى مدى الخطر الناتج من هذا الاجراء . وكيف انه يؤدي الى حصر العلم في طبقة ضيقة جدا من الامة ويقلل الاساتذة الاكفاء ويلاشي القدرة العلمية والفنية التي بلغتها البلاد بما يميت هذه اللغة شيئا فشيئا .

ونصح المستر بلنت للمصريين والعرب بان يحافظوا على لغتهم ودينهم، فقال اذا اراد المصريون ان ينالوا استقلالهم ويحرروا وطنهم فعليهم الاحتفاظ بما احتفظت به كل امة مهضومة ، وهو « الدين واللغة » فان الامة التى تقبل لغة الفاتح تشكل على نفسها الذل والطاعة العمياء والامة التى تقبل دين من اغتصب بلادها تخون شرفها الوطني

ولعل اخطر ما تحمله خطة الغزو الاجنبي بالنسبة للغة العربية هو ما حاوله « ويلكوكس » من تاصيل للعامية والادعاء بانها لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية وانها جاءت من لغة اخرى ماتت هي اللغة البونية ، فقد نشر رسالة عام 1926 بعنوان « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية » : زعم فيها ان اللغة التي يتعلمها الناس من حلب الى مراكش بما فى ذلك مالطة هي اللغة الكنعانية او الفينيقية او البونية ، كما زعم ان اللغة البونية التى هي اساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى فقد دخلت مصر قبل ان تدخلها الفصحى بالف سنة وانها انحدرت اليها من الهكسوس (1) .

وهذه محاولة جريئة وماكرة ومبطلة للقول بان اللهجة العامية هي لغة قائمة بذاتها وانها كانت موجودة قبل الاسلام والهدف من هذا هو تاصيل الدعوة الى العامية فى محاولة لاحلالها لغة للكتابة حيث يردد هؤلاء جميعا العلاقة بين العامية والعربية ويقارنوها بالعلاقة بين اللاتينية واللغات الاوربية الحديثة وهي مقارنة باطلة ومضللة وقد رددنا على هذه الاتهامات فى كتابنا « اللغات العربية بين حماتها وخصومها » .

والمعروف ان ولكوكس كان من اكبر دعاة العامية وانه ترجم الانجيل بالعامية ـ كما ترجم بعض قطع

---

(1) لزيادة التفاصيل راجع كتابنا (اللغة العربية بين حماتها وخصومها) وكتاب تاريخ الدعوة الى العامية.

لشكسبير وقد وجدت هذه الترجمات ازدراء او احتقارا كبيرين ولم يتقبلها احد .

كما اجرى هؤلاء الاربعة (سبيتا ، نولرس ، ولور ، ويلكوكس) محاولات متعددة للدفاع عن العامية وذلك بادعاء القول بان لها قواعد محددة .

وكان الهدف من هذه الحملات المتوالية التى بدات (1880 ـ واستمرت الى 1926 واضحا هو ليس فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا الى الامور نظرة عميقة « فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم بل هو اكبر من ذلك واخطر وهو السر المكتوم فى حنايا الصدور : القضاء على لغة القرآن واحلال لهجات تصبح لغات فينطوي كتاب الاسلام الاكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهي وحدة الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التى رسمها التبشير والاستشراق ، انبثقت دعوات لطفي السيد وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي فى مصر وغيرهم فى لبنان (المعلوف والخوري ومارون غصن) ـ وما تزال كتابات دعاة العامية فى مصر والعالم العربي الى اليوم تستمد مصادرها ودفاعها وهجومها على الفصحى من هذه الكتابات التى وسدت لهم مجال الدعوة الباطلة .

وكذلك فعل التبشير والاستشراق فى كل جوانب الفكر الاسلامي هذا الفعل ، فاعد ركيزة اساسية باقلام رجاله وترك لتابعيه وخدامه الانتفاع بها وترديدها ولقد قرات فى الاعوام الاخيرة رسالة القيت فى احدى المؤتمرات الغربية عن العامية، لا تكاد تخرج فى مضمونها عن كلام ويلمور وويلكوكس وان كانت بحروف عربية وبتوقيع اسم عربي .

ولم تمر هذه الحملات على اللغة العربية دون معارضة وتفنيد بل لقد واجهت هذه الحملات ردود فعل قوية وكتب الكثيرون يفندون آراء لطفي السيد ورد عليه مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمان البرقوقي ، وفند الدكتور احمد الحوفي آراء سلامة موسى وفند عبد الوهاب عزام وكثيرون آراء عبد العزيز فهمي .

وما يزال يردد هذه الدعوى كثيرون فى هذا الجيل من امثال ميخائيل نعيمة وليويس عوض وسعيد عقل وسوف لا يكون رجاؤهم باكثر من رجاء من سبقوهم .

صدرت للاستاذ انور الجندي الموسوعة الاسلامية العربية فى عدة مجلدات نخص بالذكر منها بحوثا حول الفكر العربي فى معركة التغريب والتبعية الثقافية ومعالم الفكر العربي المعاصر والفكر الاسلامي والثقافة العربية ، ولسيادته ايضا « معالم الادب العربي المعاصر » (1871 ـ 1939) .